دفاع عن الوجودية

« مهداة الى الأستاذ على متولى صلاح »

للسيد نهاد التكرلى

ما كادت الوجودية تنتشر فى فرنسا فى أعقاب الحرب العالمية الثانية حتى انهالت عليها الانتقادات والاتهامات من كل حدب وصوب . وقد صار النقاد على مختلف نزعاتهم ، من شيوعيين إلى مسيحيين ، يكيلون لها التهم جزافا . فاتهموا جان بول سارتر — مؤسس هذه الفلسفة فى فرنسا — بأنه استوحى فيلسوفا ألمانيا نازيا هو مارتن هيدجر ، ومن ثم فلابد أن تكون فلسفته ذات نزعة فاشية . ونسبوا إليه نشره باسم الوجودية نزعة ركونية للقلق تجعل الانحلال والفساد يدب إلى الشبيبة وتصرفها عن العمل . لأن سارتر كما يقولون يثير الشباب لاستغلال نوع خاص من اليأس واتهموا سارتر بأنه يدافع عن مذاهب عدمية (والبرهان على ذلك فى نظر أحد النقاد هو أن عنوان كتاب سارتر الفلسفى هو « الوجود والعدم » !) فى مثل هذه السنوات التى يجب فيها إعادة بناء كل شئ من جديد ، والعمل لتكريس الجهود لربح الحرب وربح السلام . ثم اتهموه أخيرا بأن الوجودى لا يطيب له إلا الانهماك فى الإقناع وإظهار شرور الناس وضعتهم أكثر من إبرازه الجانب المضئ من مشاعرهم وعواطفهم الجميلة

وقد حاول سارتر الرد على بعض هذه الاتهامات التى تبدو مستوحاة ببواعث من سوء النية والجهل . خاصة وأن أصحابها كما يبدو جليا لم يقرأوا أى كتاب من الكتب التى يتحدثون عنها ؛ والظاهر أنهم قد اختاروا الوجودية هدفا يسددون إليه سهام نقدهم لأنهم أولا بحاجة إلى شخص أو مبدإ يتحمل خطايا الآخرين ، ولأنهم ثانيا وجدوا أن الوجودية مذهب مجرد لا تعرفه إلا فئة ضئيلة من الناس ؛ ولن يحاول أحد التحقق عما يقولون . ومن بين الردود التى فند فيها سارتر مزاعم هؤلاء النقاد مقال نشره فى جريدة الأكسيون الفرنسية بتاريخ ٢٩ ديسمبر عام ١٩٤٤ نحاول تلخيصه لقراء الرسالة فى هذا المقال ، ومحاضرة عنوانها « الوجودية نزعة إنسانية » ألقاها سارتر فى نادى (منتنان) وقد لخصناها لقراء مجلة الأديب البيروتية فى العام المنصرم

يقول سارتر عن النقد الخارجى الذى وجه إليه : إن هيدجر كان فيلسوفا قبل أن يكون نازيا بوقت طويل . ويمكن تفسير اتفاقه مع الهتلرية بالخوف وربما بالوصولية ، أو بالانقياد والخضوع وهو الأمر الأكثر يقينا . وهذا على كل حال أمر ممقوت لايحبذه أحد أبدا غير أنه كاف وحده للطعن فى استدلال النقاد . فهم يقولون : « إن هيدجر عضو فى الحزب الاشتراكى الوطنى وإذن فلا بد أن تكون فلسفته نازية » . بينما الحقيقة على خلاف ذلك ، إذ أن هيدجر لا خلق له وهذا هو كل شئ . فهل هناك من يجرؤ على الاستنتاج من هذا بأن فلسفته تبرر لجبنه ؟ أليس المعروف بأن هنالك كثيرا من الأشخاص لم يرتقوا إلى مستوى مؤلفاتهم ؟ هل يجب أن ندين « العقد الاجتماعى » لأن روسو كان يضع أطفاله فى ملجأ اللقطاء ؟ ثم ما أهمية هيدجر ؟ ! إذا اكتشف سارتر فكرته الخاصة فى فكرة فيلسوف آخر أو إذا طلب إلى هذا الفيلسوف اصطلاحات فنية وطرقا كفيلة بإبلاغه إلى مشاكل جديدة كان ذلك دليلا على أنه يعتنق جميع نظرياته؟ لقد اقتبس ماركس من هيجل منطقه الجدلى فهل يقول أحد بأن كتاب « رأس المال » مؤلف بروسى ؟

ولنأت الآن إلى الوجودية فنرى هل حاول هؤلاء النقاد تعريفها على الأقل إلى قرائهم ؟ إنهم لم يحاولوا هذه المحاولة لأنهم يعلمون بأن ذلك يورطهم فى جدال فلسفى ليكلفهم مجهودا كبيرا لا يتناسب وهذه الهجمات المبتذلة التى يشنونها على الفلسفة . ومع ذلك فإن هذا التعريف بسيط إلى درجة كبيرة . يقول سارتر : من المقرر — لو استعملنا عبارات فلسفية — أن لكل شئ ماهية ووجودا . والماهية معناها مجموع ثابت من الخصائص ؛ بينما الوجود يعنى نوعا من الحضور الفعلى فى العالم . والشئ الذى يعتقد به كثير من الناس هو أن الماهية تأتى أولا ثم الوجود ، فالبسلة الخضراء مثلا تنبت وتستمر طبقا لفكرة البسلة ، والخلل يخلل لأنه يساهم فى ماهية الخلل ، وهذه الفكرة

تنبع فى الأصل من فكرة دينية . وفى الواقع أن الذى يريد أن يبنى بيتا لابد أن يعرف بالضبط أى نوع من الأشياء سيبدعه . فهنا أيضا نجد أن الماهية تسبق الوجود وهذه الفكرة موجودة لدى كل الذين يعتقدون بالله وبأنه خلق الإنسان ، إذ لابد أن يكون قد قام بهذا العمل وفقا للفكرة أو المفهوم الذى كان لديه عن الإنسان . غير أن بعض المفكرين قد قالوا بالإلحاد مع محافظتهم على هذا الرأى التقليدى ، وهو « أن الشئ لا يوجد أبدا إلا وفقا لماهيته »

وكان جيل القرن الثامن عشر بأجمعه يفكر بأن هنالك ماهية مشتركة بين جميع البشر تدعى « الطبيعة البشرية » . غير أن الوجودية قد جاءت أخيرا فقلبت الوضع لأنها قالت بأن الوجود لدى الإنسان — ولدى الإنسان فقط — سابق على الماهية . وهذا يعنى بكل بساطة أن الإنسان « يوجد » أولا ثم يكون بالتالى هذا الشخص أو ذاك . وبكلمة واحدة أن الإنسان يجب أن يخلق ماهيته الخاصة بنفسه . فهو عندما يرى بنفسه فى العالم ويتألم ويناضل فيه إنما يعرف نفسه شيئا فشيئا .. ومجال هذا التعريف يبقى مفتوحا دائما ، فلا يمكن القول ما هو (هذا) الإنسان قبل أن يموت .. ولا ما هى الإنسانية قبل أن تزول من على وجه الأرض

والآن وبعد ما تقدم : هل الوجودية فاشية أم محافظة أم ضيوعية أم ديمقراطية ؟ من الواضح أن هذا السؤال سخيف لا معنى له .. إذ الوجودية وهى على هذه الدرجة من العمومية ليست سوى طريقة معينة لمواجهة المسائل الإنسانية .. رافضة إعطاء الإنسان أية طبيعة ثابتة على الدوام . لقد كانت الوجودية سابقا تقترن بالمعتقد الدينى كما نجدها لدى كيركجورد .. والوجودية الفرنسية التى يمثلها سارتر تميل اليوم إلى الأخذ بالإلحاد .. غير أن هذا ليس ضروريا بصورة مطلقة . وسارتر يقول إن كل ما يمكن ذكره فى هذا الصدد هو أنها لا تبتعد كثيرا عن التصور الذى تصوره ماركس للانسان . ألا يرتضى ماركس فى الواقع هذا الشعار الذى اتخذه سارتر شعارا للانسان : أن يعمل ويعمله يصنع نفسه ولا يكون شيئا سوى ما صنعه من نفسه ؟

والآن نقول : إذا كانت الوجودية تعرف الإنسان بواسطة فعله فمن البديهى أنها ليست فلسفة للركونية ؛ إذ الإنسان فى الواقع لا يمكن إلا أن يفعل ، فأفكاره تصاميم والتزامات ، وعواطفه مشروعات . إنه لا شئ سوى حياته وما حياته إلا وحدة سلوكه . أما « القلق » الذى تعلن عنه وجودية سارتر والذى قال عنه النقاد بأنه يأكل الإنسان ويشله عن العمل ، فإنه — بالرغم من سمو هذه الكلمة — يدل على حقيقة يومية فى غاية البساطة . يقول سارتر إننا (لا نكون) بل (نصنع أنفسنا) ونحن عندما نصنع أنفسنا نتحمل مسؤولية الجنس البشرى بأجمعه . وإننا عند إقدامنا على الفعل لا نجد إزاءنا قيما أو أخلاقا منحت لنا بصورة قبلية .. بل علينا فى كل حالة أن نقرر ونبت فى أمرنا بصورة منفردة دون أن تكون لدينا نقطة ارتكاز أو هاد يهدينا سواء السبيل ، مع كوننا نفعل من (أجل الجميع) . فكيف يمكن بعد هذا ألا نشعر بالقلق عندما يتحتم علينا الفعل ؟ إن كل فعل من أفعالنا يمس معنى العالم ومكان الإنسان فى الكون ، ونحن نؤسس بواسطة كل فعل من أفعالنا — حتى لو لم نرد ذلك — سلما من القيم الشاملة . فكيف يمكن ألا يأخذنا الخوف إزاء هذه المسؤولية الكلية ؟

لقد قال بونج فى عبارة بديعة للغاية ان « الإنسان مستقبل الإنسان » وسارتر معجب بهذا القول . وهو يقول بأن هذا المستقبل لم يصنع بعد ولم يبت فى أمره . إننا نحن الذين سنصنعه ، وإن كل واحدة من حركاتنا تساهم فى رسمه ، ويجب أن يكون المرء على شىء كبير من النفاق لكى لا يشعر بالقلق إزاء هذه الرسالة الهائلة الملقاة على عاتق كل واحد منا . ولاشك أن النقاد قد خلطوا عمدا بين القلق والنورستانيا لكى يدحضوا سارتر بصورة أكثر يقينا ، فجعلوا من هذا الجزع الوجودى الذى يتحدث عنه الوجودى خوفا باثولوجيا موهوما . ولذلك يقول سارتر إن القلق لا يمكن أن يكون عائقا للفعل لأن نفسه شرط للفعل . وهو جزء لا يتجزأ من معنى هذه المسؤولية الساحقة : مسؤولية الكل أمام الكل التى تسبب عذاب الإنسان وعظمته فى نفس الوقت

أما اليأس الذى يقولون عنه بأنه يعود الحياة فى نظر الإنسان ويصرفه عن العمل فيجب أن نفهم معناه ونتعمق مدلوله .

يقول سارتر : من الجلي أن الإنسان يخطئ إذ (يأمل) في أمر من الأمور ، وهذا القول لا يعني سوى أن الأمل أسوأ قيد للفعل. هل كان يجب على الفرنسيين أن يأملوا في انتهاء الحرب من تلقاء نفسها ؟ أو أن عد النازيون لهم أيديهم ؟ أو هل لنا أن نأمل في أن يتخلى أصحاب الامتيازات في المجتمع الرأسمالي عن امتيازاتهم عن طيب خاطر ؟ يقول سارتر إننا لو كنا نأمل في كل هذا فلن يبقى علينا إلا أن ننتظر مكتوفي الأيدي . إن الإنسان لا يمكنه أن يريد إلا إذا أدرك أولا بأنه لا يستطيع أن يعتمد إلا على نفسه، وبأنه وحيد متروك على هذه الأرض وسط مسؤولياته اللانهائية من دون سند أو مساعدة . لا غاية له سوى الغاية التي سيعطيها لنفسه. ولا مصير له سوى المصير الذي سيبتدعه لنفسه . هذا اليقين وهذه المعرفة الغريزية التي لدى الإنسان عن موقفه في العالم هو ما يدعوه سارتر باليأس . فهو ليس ضلالا خياليا جميلا ، بل وعي جاف واضح بالحالة الإنسانية. وكما أن القلق لا يتميز عن معنى المسؤوليات فإن اليأس يتحد مع الإرادة في وحدة لا انفصام لها. ومع هذا النوع من اليأس يبدأ التفاؤل الحقيق : تفاؤل الإنسان الذي لا ينتظر شيئاً ويعلم بأنه لا يملك أي حق ولم يترتب عليه أي واجب . تفاؤل الإنسان الذي يبتهج بالاعتماد على نفسه وحدها وبالعمل وحيدا لخير الجميع

وبعد فهل تلام الوجودية على أنها تؤكد الحرية الإنسانية ؟ يقول سارتر مخاطبا النقاد: إنكم جميعا بحاجة إلى هذه الحرية ، وما أراكم إلا واضعين النقاب عليها مراءاة ونفاقا لأنكم تعودون إليها بدون انقطاع رغما عنكم . يقوم أحد الناس بعمل شرير فتفسرونه بأسبابه وبموقفه الاجتماعي ومصالحه الخاصة وتسخطون عليه فجأة وتؤاخذونه على مسلكه بمرارة . بينما يوجد على العكس أناس آخرون تعجبون بهم وتتخذون أفعالهم نماذج تسيرون بموجبها . فماذا يعني كل هذا ؟ هل يعني سوى أنكم لا تساوون بين الأشرار وبين دودة الكرم .. ولا بين الطيبين وبين الحيوانات المفيدة ؟ إنكم تلومونهم أو تمتدحونهم لأنهم كان بوسعهم أن يفعلوا غير ما فعلوه وبذلك تفترضون فيهم الحرية من غير أن تشعروا

يقول سارتر إن نضال الطبقات حقيقة واقعة لاشك فيها، وإنه يساهم فيها بصورة تامة . لكن كيف يمكن وضع هذه الواقعة على مستوى غير مستوى الحرية ؟ إننا نرى أن الشيوعيين يتهمون سارتر وأقرانه ويقولون لهم إنكم بأفيون الحرية هذه تمنعون الإنسان من أن يكسر عنه قيوده . غير أن هذا الكلام يدل على سوء فهم تام للحرية التي ينادي بها سارتر — فهو عندما يقول بأن العامل الماطل حر لا يعني بأنه يستطيع أن يفعل كل ما يروق له وأن يتحول في لمح البصر إلى بورجوازي غني مسالم . إنه حر لأنه يستطيع دائما أن يختار قبول نصيبه باستسلام أو أن يتمرد على هذا النصيب . حقا أنه قد لا يتوصل إلى تجنب الشقاء غير أنه يستطيع أن يختار من صميم هذا الشقاء الملتصق به النضال ضد جميع أنواع الشقاء ، باسمه وباسم الآخرين جميعا .. إنه يستطيع أن يختار نفسه كإنسان يرفض أن يكون الشقاء نصيب البشر

فهل سارتر خائن اجتماعي لأنه يستدعي أحيانا هذه الحقائق الأولية ؟ يقول سارتر لقد كان ماركس إذن خائنا اجتماعيا لأنه قال : « إننا نريد تغيير العالم » ، فعبر بهذه الجملة البسيطة على أن الإنسان سيد مصيره . سيكون هؤلاء النقاد جميعا إذن خونة اجتماعيين لأن هذا هو ما يفكرون به في الواقع عندما يخرجون من حدود المذهب المادي الذي إن كان قد قدم خدمات لا يمكن نكرانها فإنه قد شاخ ولم يعد يصلح لهذا العصر . أما إذا كانوا ينكرون هذه الحقيقة الأولية فسيكون الإنسان لديهم شيئا مثل باقي الأشياء تماما . سيكون قليلا من الفوسفور والكاربون والكبريت وعندئذ لن يكون من الضروري الاحتفاء به أو الاهتمام بأمره

بعقوبة — العراق

نهاد التكرلي

وحي الرسالة

فصول في الأدب والسياسة والنقد والاجتماع

والقصص

للأستاذ أحمد حسن الزيات بك